الباب الأول

في مولده وعمره ، ومنشأه وتربيته ، ومن أخذ عنه

ولد ~ تعالى بشابور[١] قرية من قرى مصر سنة ستة وثمانين وستمائة ومات سابع رمضان سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، فجملة عمره ثلاث وستون سنة ، وتربّى يتيمًا ، وذلك أنّه لما بلغ من العمر نحو التسع مات والده ، وقال لأمه عند موته : لا تخرجي عبد الله من الكتاب .

فقالت له : كيف لي قدرة على ذلك وأنا فقيرة ؟

فقال لها : يلطف الله بك وبه .

فلما مات وجلست أيامًا قلائل جاء الشيخ سليمان[٢] ومعه مغاربة من منوف ليقرأ عليه القرآن ؛ فبعثته معه وهو ابن تسع ، وكان ذلك سنة أربع وتسعين وستمائة فتعلم عليه القرآن وانتفع به .

ونسب الشيخ ~ تعالى لمنوف لهذا وكان والد الشيخ وأمه مغربيين ، وكانا من الصلحاء ، وحكى لي غير واحد عن والدته رحمها الله تعالى أنها قالت : كان والدي يضربني على الصلاة ؛ فأنا ذات ليلة في رمضان رأيت نورًا عظيمًا ورأيت أبواب السماء مفتحة وكل شيء ساجد لله تعالى ، ورأيت الملائكة تنزل من السماء ؛ فعلمت أنها ليلة القدر ؛ فسألت الله تعالى أن يحببني في

---

(١) قرية بمحافظة البحيرة ، وتكتب بالمهملة في بعض المراجع . انظر معجم البلدان : ٣/ ٣٠٤ ، الخطط التوفيقية ، لعلي مبارك : ١٢/ ٢٩٨ .

(٢) انظر ترجمته في الدرر الكامنة ، لابن حجر :٢/ ٣١٤ ، برقم (١٨٧٠) وسيأتي كلام المصنف عليه .

الصلاة ؛ وحصل لي انزعاج ، قالت : فقام والدي وقال لي : مالك ؟

فقلت : رأيت كذا وكذا .

فقال لي : يا مسكينة ولم لا سألت الله تعالى دخول الجنة بغير حساب ؟!

قالت : فتزوجت ثلاثة رجال آخرهم أبو عبد الله ـ يعني سيدي الشيخ ـ ولم تفتني صلاة الصبح قط في وقتها .

***

وكان الشيخ سليمان من الأولياء الكبار العارفين بالله المتمكنين وكان شاذليًا ، وانتفع سيدي الشيخ به وخدمه كثيرًا وكان ~ تعالى يربي الصغار ، ويعلمهم الأدب والخير .

قال سيدي الشيخ ~ : وعمل الشيخ سليمان مفتاحًا من أثل [1] وهو شديد البياض ووضع بكوة قريبة من الفرن فعن قليل اسودّ ؛ فقال للصغار : يا ولادي انظروا كيف تصبغ الجيرة فلا يخالط أحدكم إلا أهل الخير ؛ أو كما قال .

وهذا كما قال النبي ﷺ : «مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه ، ومثل جليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من شرره ـ وفي رواية سواده ـ أصابك من دخانه»[2] . رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

وخدمه سيدي الشيخ الخدمة العظيمة الكثيرة ، ولما ضعف الشيخ سليمان

---

(١) شجر طويل مستقيم الساق صغير الأوراق واحدته أثلة ، ويتسم خشبه بالبياض والمتانة .

(٢) أخرجه البخارى (٥/ ٢١٠٤ ، رقم ٥٢١٤) ، ومسلم (٤/ ٢٠٢٦ ، رقم ٢٦٢٨) .

خدمه وشال بوله بيديه ، ثم جاء ولد الشيخ سليمان ، وهو الشيخ الصالح إبراهيم لكونه كان غائبا وسأل والده [٨/ أ] الدعاء فقال له الشيخ : الذي كان في الجراب أخذه عبد الله ، ولكن لك الله تعالى .

أخبرني بذلك غير واحد وكان إبراهيم المذكور من الصلحاء الكبار وبلغني من غير واحد أن الشيخ سليمان أمر الصغار لما امتلأت حفرة الخلاء التي لهم بشيلها فشال سيدي الشيخ ~ تعالى وغيره ، ثم انصرف غيره وبقي وحده يشيل في الهاجرة ، فجاء الشيخ وقال له : يا عبد الله أين بقية الصغار ؟

فسكت سيدي الشيخ ؛ فقال : راحوا ؛ لا يفلح فيهم غيرك .

***

فانظر عمر سيدي الشيخ وتربيته في كونه وافق فيهما النبي ﷺ على الصحيح في عمره من الأقوال ، وكذلك عاش أبو بكر ثلاثا وستين[١] ، وكذلك عمر رضي الله عنه ، وقيل : إنه عليه الصلاة والسلام مات ابن خمس وستين سنة[٢] ، وقيل : ابن ستين سنة [٣] ، وكذلك بعده عن والدته في حال الطفولية .

ومن جملة تأديب الشيخ سليمان لسيدي الشيخ ما حدثني به غير واحد ، والشيخ الصالح محمد بن الشيخ عبد الرحمن زوج أخت سيدي الشيخ وهو ولدها منه ، أن سيدي الشيخ كان في حال شبوبيته عند خالته تعزبه[٤] ، وهي

---

(١) أخرجه البخارى (٥/ ٢١٠٤ ، رقم ٥٢١٤) ، ومسلم (٤/ ٢٠٢٦ ، رقم ٢٦٢٨) .

(٢) الطبراني في الكبير : ١/ ٥٩ ، برقم ٣٦ ، عن ابن عباس { .

(٣) أبو يعلى في سنده : ٦/ ٢٦٨ ، برقم (٣٥٧٣) من حديث أنس .

(٤) عَزَبَتْه تَعزُبه وعَزَّبَتْه قامت بأُموره .

زوجة أخي الشيخ سليمان ، فقال لها سيدي الشيخ : يا خالتي زيدي في عجيني ؛ فإنه يأتيني من عند والدتي آخر النهار ثلاثة رجال ، ويأتوا لي معهم بأربعين [٨/ ب] درهمًا إلا درهمًا ؛ فهم عند العصر وإذا بالشيخ دخل لهم بثلاث عصي ، فخرج أخو الشيخ سليمان فوجدهم ، فقال لهم : معكم فضة نفقة [١] لعبد الله ؟

فقالوا : نعم ؛ فقال : والله ما تجلسون حتى تعطوها لي ، فدفعوها له ، ووزنها فجاءت أربعون إلا درهما ، وسألهم ما الموجب لكونها أربعين إلا درهمًا [٢] ، فقالوا : إنها ما أرسلتها إلا أربعين ، ولكن اضطررنا لدرهم في الطريق ، فذهب أخو الشيخ سليمان متعجبًا من مقالة سيدي الشيخ ، وأخبر الشيخ سليمان ؛ فدعاه الشيخ سليمان وقال له : ومن يطلع على شيء من هذا يظهره ؟!

وأدبه على ذلك ، ولهذا كان سيدي الشيخ متكتمًا [٣] لحاله ما استطاع ، وبلغني عن سيدي الشيخ سليمان أن سيدي الشيخ لما بلغ وكبر قال لهم : مقام عبد الله اليوم لا ألحقه أنا ولا غيري .

ثم ارتفع مقامه كثيرًا ، ولم يزل الشيخ في ارتفاع ، وبلغني عن بعض أهل الخير والصلاح العارفين بالله تعالى أنه قال : تقطب الشيخ قبل موته بقليل .

ورأيت مرة شخصًا دخل لسيدي الشيخ فقال له : يا سيدي نفعني الله بك ـ وذكر له أمر مقامه ، فقال له سيدي الشيخ : أنا ما أعرف لي مقامًا .

---

(١) ساقطة من نسخة .

(٢) قوله : «ما الموجب...» ساقط من نسخة .

(٣) في نسخة (متمكنا) .

فقال له ذلك الرجل : لأنك إذًا [١] في ارتفاع .فسكت سيدي الشيخ ~ تعالى .

***

ولما قرأ القرآن أرسل أهل الطرَّانة[٢] للشيخ سليمان يطلبون منه من يصلي بهم قيام [٩/ أ] رمضان ، فأرسل لهم سيدي الشيخ ؛ فلما صلى بهم دفعوا له ثلاثين درهمًا ؛ قال سيدي الشيخ : فترددت : هل أدخل بها إلى القاهرة للاشتغال ؟ أو أرجع إلى الوالدة ؟ فدخلت الجامع فرأيت فيه مكتوب هذه الأبيات[٣] :

مَا فِي المَنَازِلِ ذو عِزٍّ وذو نَصَبٍ بل راحةٌ فَاهْجُرِ الأَوْطَانَ واغترِبِ
سافر تجد عوضًا عمَّن تفارقه وَانْصبْ فَإِنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ[٥] فِي النَّصَبِ
فالأَسدُ لولا فراق الغاب ما افترست والسُّهم لولا فراق القوس لم تصب
إني وجدت[٦] وقُوفَ الماءِ يفسدهُ إِنْ سَاحَ طَابَ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ

والتِّبْرَ كالتُّرْبَ مُلْقَىً في معادنه والعودُ في أرضه نوعٌ من الخشبِ[٧]

(١) في نسخة (أبدا) .

(٢) **الطرَّانة مشددة** : اسم لوادي هبيب وهي كورة من حوف رمسيس وتعرف ببرية شهاب وبرية الأسقط وميزان القلوب بها قبر أبي معاذ الكبير وفيه كتاب عمرو بن العاص لهم . انتهى من تاج العروس : ٣٥/ ٣٥١ ، باب النون فصلها مع الطاء .

(٣) قوله : مكتوب هذه . . . الأبيات زيادة من نسخة والأبيات في الديوان المنسوب للإمام الشافعي .

(٤) البيت في الديوان هكذا :

ما في المقام لذي عقلٍ وذي أدب مِنْ رَاحَةٍ فَدعِ الأَوْطَانَ واغْتَرِب

(٥) قوله : فإن لذيذ العيش في النسخة الأخرى : فإنك تلقى العز

(٦) في الديوان (رأيت) .

(٧) في الديوان (الحطب)

قال : فقوي المجيء عندي للقاهرة ، فجئت واشتغلت وجعلت[١] أنفق درهمًا بعد درهم إلى أن بقي معي درهم واحد ، ففكرت هل أذهب به أو أجلس ؟ فأنا كذلك وإذا أنا بقيم المدرسة الصالحية[٢] واسمه سبيع ، قال لي : ما تصلي في مسجد ؟

قلت له : نعم ؛ فذهب بي إلى مسجد في العطوف .

فصليت فيه فأعطوني ثلاثين درهمًا كل شهر فواظبته إلى أن عُرضت على الشيخ شمس الدين التونسي[٣] فقال لي : يا عبد الله كم يساوي اللحم ؟

فقلت : لا أدري . فقال : خذ بهذين الدرهمين لحمًا وكله الليلة .

ففعلت ثم بعد قليل دفع إلي الشيخ ورقة وقال : اذهب إلى الصيرفي فأت بما فيها .

فدفع إلي سبعين[٤] درهما ، فلما جئت بها إلى الشيخ ، قال : هذه لك ، وأنا نزلتك في المنكوقمرية[٥] من شهرين ، وهذه عن شهرين . [٩/ ب]

قال : فتركت المسجد حينئذ وحصل لأصحابه على الأسف .

***

(١) في نسخة وصرت

(٢) المدرسة الصالحية أنشأها الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩هـ في بين القصرين ورتب فيها دروسا للمذاهب الأربعة . انظر : الخطط المقريزية : ٤/ ٢٠٩ .

(٣) قوله : «شمس الدين التونسي» ساقطة من نسخة .

(٤) في نسخة ستين .

(٥) المدرسة المنكودمرية أو المنكوتمرية نسبة لمنكوتمر الآمر ببنائها وقد أوقفها على طلبة الفقه الشافعي سنة ٦٩٧هـ .

وأخذ الشيخ عن جماعة من أهل العلم والفضل كالشيخ ركن الدين بن القوبع والشيخ شمس الدين التونسي[١] الذي اختصر تفسير ابن الخطيب[٢].

والشيخ شرف الدين الزواوي[٣]، وفي العربية والأصول عن الشيخ شهاب الدين المرحل[٤]، وفي اللغة على الشيخ جلال الدين إمام الفاضلية

---

(١) محمد بن أبي القاسم بن عبد السلام بن عبد الله الربعي التونسي المالكي شمس الدين اشتغل في الفنون وأفتى ودرس بالمنكوتمرية وأم بالصالحية، وكانت دروسه فصيحة في غاية الجودة، وناب في الحكم بالحسينية، ثم ولي قضاء الاسكندرية، وله اختصار تفسير ابن الخطيب، وقواعد القرافي وغير ذلك ومات في صفر سنة ٧١٥هـ. باختصار من الدرر الكامنة، لابن حجر ج٢، ص٧٠.

(٢) هو: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين البكري، الطبرستاني، الهروي، فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ، قال ابن خلكان: فريد عصره ونسيج وحده، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل، له التصانيف المفيدة في فنون عديدة منها تفسير القرآن الكريم جمع فيه كل غريب وغريبة، وهو كبير جدا لكنه لم يكمله. انتهى من وفيات الأعيان: ٤/ ٢٤٨.

(٣)أبو الروح، عيسى بن مسعود الحميري، القاضي شرف الدين المالكي، المتوفى سنة ٧٤٣هـ، والمولود سنة ٦٦٤ هـ بزَوَاوة (وهي اسم بلد وقبيل من الأمازيغ بين تونس والمغرب) تفقه ببجاية (بالجزائر) ثم قدم الإسكندرية فتفقه بها ثم رجع إلى قابس، وولي القضاء بها ثم رجع إلى الإسكندرية فأقام يسيرًا ثم دخل مصر، وكان يذكر أنه حفظ مختصر ابن الحاجب فى ستة أشهر ونصف وعرضه وأنه حفظ الموطأ وعرضه، ثم دخل دمشق فى سنة ٧٠٧ هـ فناب عن جمال الدين المالكى فى الحكم، ودرس بالجامع الأموى ثم عاد إلى القاهرة فناب فى الحكم عن زين الدين بن مخلوف، ثم عن تقى الدين الإخنائي، وولي تدريس المالكية بالزاوية التى بمصر، وأعرض عن الحكم وأقبل على التصنيف فكتب شرح مسلم فى اثنى عشر مجلدا وسماه «إكمال الإكمال» جمع فيه بين «المعلم» للمازري و«إكماله» لعياض، وشرح النووي وزاد فيه فوائد ومسائل من كلام الباجى وابن عبد البر وأبدى فيه سؤالات مفيدة وأجوبة عنها، وشرح المختصر الفرعي لابن الحاجب فوصل إلى الصيد في سبعة أسفار، وشرح مختصر ابن يونس فى ستة، وله كتاب فى الوثائق، وآخر فى المناسك، وفى مناقب مالك، ورد على ابن تيمية فى مسالة الطلاق.

(٤) أبو الفرج، عبد اللطيف بن عبد العزيز بن يوسف بن ذوالة الحراني الأصل الشافعي المعروف بابن المرحل شهاب الدين النحوي المتوفى سنة ٧٤٤هـ، كان أبوه يبيع الرحال للجمال فلذلك قيل له =

الذي له التصانيف في تعبير المنامات ، وصحح بعض شيء على الشيخ مجد الدين الإقفاصي [١] .

قال سيدي الشيخ : وكان مجد الدين المذكور من الصلحاء الأخيار ؛ قال : واتفق لي معه أني لما عرضت الجلاب [٢] عليه ، وأردت أن يكتب لي بعارضته كنت مشتهيا التين والعنب ، ولم يكن معي ما أشتريهما به فدفع إلي درهمًا ، وقال لي : هات به عنبًا وتينًا .

قال : وظننت أن الشيخ له بهما حاجة ، فذهبت واشتريتهما ، فلما جئت بهما قال لي : لا أكتب لك شيئا حتى تأكله جميعه .

قال : فأكلته وحصل لي الشبع التام ، وعلمت أنه علم بحالي . قال : وكلما رأيت التين والعنب رحمت عليه .

قال : وكان الشيخ ركن الدين بن القوبع [٣] يحضني [٤] على مطالعة الإحياء

= ابن المرحل ، قال ابن حجر : قرأ بنفسه ، وتصدر بالجامع الحاكمي وانتفع به الناس و وكان فاضلا فى النحو واللغة والمعاني والبيان والقراآت وكان تاجرًا في الكتب ، اعتنى بالعربية وخصوصا ألفية ابن مالك ، فكان فيها ماهرا وأقرأها فأخذها جماعة بحلب والقاهرة عنه ، وقد أخذ عنه الشيخ جمال الدين ابن هشام وهو الذي نوه به وعرف بقدره ، وكان يطريه ويفضله على أبى حيان وغيره ويقول كان الاسم في زمانه لأبى حيان والانتفاع بابن المرحل . انتهى من الدرر (بتصرف) : ٣/ ٢٠٩ .

(١) لم أقف على ترجمتهما في ما بين يدي من مصادر .

(٢) أي : كتاب التفريع في فقه الإمام مالك بن أنس ، لأبي القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن بن الجلاب البصري ، المتوفى سنة ٣٧٨هـ ، ويعرف اختصارا عند المالكية بالجلاب .

(٣) أبو عبد الله ، محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الجليل الجعفري ، التونسي ، ركن الدين المعروف بابن القوبع ، فقيه مالكي وطبيب توفي بالقاهرة سنة ٧٣٨هـ ، أخذ العلم ببلده تونس وسمع بدمشق وأتى للقاهرة ، ودرس المنكوتمرية وأعاد بالناصرية وغيرها ودرس الطب بالمارستان ، وكان ذكيا ماهرا له مشاركة في عديد من العلوم إلا أن فيه حدة وسآمة مالت به عن الوظائف . انتهى بتصرف من الدرر لابن حجر : ٥/ ٤٤٥ ، وترجمته بتوسعة في الوفيات ، للصفدي : ١/ ١٨٧ .

(٤) في نسخة (يحرضني)

للغزالي إلى غير ذلك من المشايخ الصلحاء العلماء ، وكان متأدبًا مع الجميع وكان [١٠/ أ] الجميع يتأدبون معه ، ويعتقدون بركته ، ويحفظون كلامه ، ويعتقدون أنهم سعدوا بالاجتماع عليه ~ .

وكان يشتغل الاشتغال الكثير مع القليل[١] في المأكل وغيره ومن كلامه كان الطالب إذا وجد ليلةً الخبزَ والفجلَ والحمصَ يرى أن تلك الليلة ليلة[٢] خصابة .

*****

(١) في نسخة (التقلل)

(٢) ساقطة من نسخة